www.diwanalarab.com

ديوان العرب تقدم لكم

القَصَص الجاهلى

د. إبراهيم عوض

ينقل د. أحمد أمين فى كتابه: "فجر الإسلام" (ط12/ مكتبة النهضة المصرية/ 1978م/ 36) عن المستشرق البريطانى ديلاسى أوليرى فى كتابه: أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف، لكنه يعقب على ذلك بأن الناظر فى شعر العرب، وإن كان لا يرى فيه أثرا للشعر القصصى أو التمثيلى أو الملاحم الطويلة التى تُشِيد بذِكْر مفاخر الأمة كـ"إلياذة" هوميروس و"شاهنامة" الفردوسى، يلاحظ رغم ذلك براعة الشاعر العربى فى فن الفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز، وهو مظهر من مظاهر الخيال. كما أن بكاء ذلك الشاعر للأطلال والديار، وذِكْره للأيام والحوادث، ووَصْفه لشعوره ووجدانه، وتصويره لالتياعه وهيامه، كل ذلك دليل على تمتعه بالعواطف الحية. ويردد أحمد حسن الزيات شيئا قريبا مما نقله أحمد أمين عن أوليرى، وإن اختلفت مسوِّغاته، إذ من رأيه أن مزاولة هذا الفن تقتضى الرويّة والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال، كما تتطلب الإلمام بطبائع الناس، وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم، فضلا عن احتياجها إلى التحليل والتطويل، على حين أنهم أشد الناس اختصارًا للقول، وأقلهم تعمقًا في البحث، مع قلة تعرضهم للأسفار البعيدة، والأخطار الشديدة. ثم إن هذا الفن هو نوع من أنواع النثر، والنثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر، وفكّر في تدوين شيء من القصص (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ 31، 393).

بَيْدَ أن عددا من كبار النقاد ومؤرخى الأدب عندنا تولَّى تفنيد هذه التهمة المتسرعة: ومن هؤلاء الدكاترة زكى مبارك، الذى أكد أن العرب "كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون" (د. زكى مبارك/ النثر الفنى فى القرن الرابع/ دار الكتب المصرية/ 1934م/ 1/ 197). كما رد عمر الدسوقى باستفاضة فى كتابه: "فى الأدب العربى الحديث" (مطبعة الرسالة/ 1948م/ 331- 347) على هذه الفِرْية العنصرية وأدحضها على أساسٍ علمىّ وفلسفىّ مبينا أن ما كتبه العرب وما ترجموه من قصصٍ فى القديم والحديث ينبئ بجلاء عما يتمتعون به من خيال ومهارة فنية فى هذا السبيل. بل يذهب أحمد أمين أيضا إلى أنه كانت هناك صلة بين عرب الجاهلية وآداب غيرهم من الأمم كالإغريق والفرس تمثلت فى أنهم أخذوا بعض القَصَص فاحتفظوا به يروونه ويتسامرون به على الحال التى نقلوه عليها دون تبديل، أو صاغوه فى قالب

يتفق وذوقهم، علاوة على قصصهم الأصيل الذى لم يأخذوه عن غيرهم مما نجده فى "أيام العرب" وما يسميه بـ"أحاديث الهوى" (انظر د. أحمد أمين/ فجر الإسلام/ 66- 68).

ويقول محمود تيمور فى كتابه: "محاضرات فى القصص فى أدب العرب: ماضيه وحاضره" (معهد الدراسات العربية العالية/ القاهرة/ 1958م/ 26): "سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربى أن فيه قصة، وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نُصْبَ أعيننا القصةَ الغربيةَ فى صياغتها الخاصة بها وإطارها المرسوم لها ورجعنا نتخذها المقياس والميزان، وفتشنا عن أمثالها فى أدبنا العربى فإذا هو خِلْوٌ منها أو يكاد. وشَدَّ ما أخطأنا فى هذا الوزن والقياس، فللأدب العربى قَصَصٌ ذو صِبْغةٍ خاصةٍ به وإطارٍ مرسومٍ له، وهو يصور نفسية المجتمع العربى وخلاله فلا يقصّر فى التصوير. وإننا لنشهد فيه ملامحنا وسماتنا وضّاحة، وكأننا لم نفقد فى مجتمعنا العربى حتى اليوم ما يكشف عنه ذلك القَصَص من ملامحَ وسماتٍ على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الآماد. وهو فى جوهره وثيق الصلة بالوشائج الإنسانية التى هى جوهر القَصَص الفنى، وإنْ تباينت الصياغة واختلف الإطار". ومن الطريف أن تيمور كان يرى عكس هذا الرأى قبلا زاعما أن البيئات الصحراوية ينقصها الخيال وأن ما تركه لنا العرب فى هذا الميدان شىء ضئيلٍ لا قيمة له، وإنْ صنّف هذا التراث رغم ذلك إلى قَصَصٍ عاطفى وقَصَصٍ حربىٍّ وبطولىٍّ وقَصَصٍ علمىٍّ فلسفىٍّ (انظر محمود تيمور/ نشوء القصة وتطورها/ المجلة الجديدة/ سبتمبر 1936م/ 52، 54- 56، 61، ومقدمته لمجموعة "الشيخ سيد العبيط"/ المطبعة السلفية/ القاهرة/ 1926م/ 41).

وفى ذات السياق يبدى محمد مفيد الشوباشى استنكاره من أنه "لا يزال بيننا أناس ينكرون على العرب كل ميزة حضارية وينظرون بعين الاستهانة والازدراء إلى آياتهم الباهرة فى ميادين الأدب والفن والعلم. وقد شملت استهانتهم وزرايتهم، فيما شملتا، القصةَ العربية القديمة! وسَنَدهم فى هذا أن قِصَص العرب كانت إما أخبارا أو حكايات أو شعرا روائيا، فهى لا تشبه القصة الحديثة التى نعرفها بحال، وعلى ذلك لا تستحق أن تسمى: قِصَصًا" (محمد مفيد الشوباشي/ القصة العربية القديمة/ سلسلة "المكتبة الثقافية"/ إبريل 1964م/ 3). وبحقٍّ يقرر د. محمد حسين هيكل أن فن القصص قد عرفته جميع الأمم القديمة والحديثة، وأن "القصة"، كما نعرفها اليوم، ليست إلا شكلا من الأشكال التى اتخذها هذا الفن على مدى تاريخه الطويل، وأن هذا الشكل سوف يتطور ولا شك فى المستقبل إلى صور وألوان أخرى. أما بالنسبة إلى الأدب العربى القديم فهو يؤكد حُفُوله بالأعمال القصصية المعبرة عن أوضاع العصور التى ظهرت فيها وملامحِها شعرا ونثرا (انظر د. محمد حسين هيكل/ ثورة الأدب/ ط3/ مكتبة النهضة المصرية/ 1965م/ 67- 73. وانظر كذلك مقاله: "رأى فى القصة العربية"/ الهلال/ أغسطس 1948م/ 116).

ويفيض د. محمود ذهنى، على مدى عشرات الصفحات من كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم"، فى مناقشة دعوى افتقار الذهن العربى إلى الخيال وخلو أدبنا القديم من الفن القصصى، مقدما عددا من الأدلة العقلية والنصوصية: منها مثلا ما ورد فى كتب التاريخ والحديث والتفسير من روايات عن النضر بن الحارث، الذى كان يحارب دعوة الرسول عليه السلام من خلال جلوسه مجلسه صلى الله عليه وسلم بين مشركى قريش وتلاوته عليهم حكايات الأكاسرة وقُوّادهم ورجال دولتهم بغية صرف قلوبهم عن الدين الجديد ومحاولة تخليصهم من تأثيركتابه المعجز. ومنها ورود كلمات "قَصَّ" و"يقُصّ" و"قصة" و"قَصَص" فى لغة العرب وكتاباتهم مما يدل على معرفتهم بهذا اللون من الأدب. ومنها ما يقوله المؤرخون من أنه كان لمعاوية رجال موكَّلون بالكتب التى تتحدث عن أخبار العرب وسياسات الملوك الماضين

يقرؤونها عليه كل ليلة. ومنها امتلاء كتب الأدب العربى بالحكايات والنوادر والقصص التى تدور حول عاداتهم وأحوال معيشتهم ومعاركهم وأساطيرهم، أو حول أخبار العجم وملوكهم وسيرتهم فى رعاياهم، أو حول المغامرات والمكايد التى يحيكها البشر بعضهم لبعض... إلخ (انظر كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم"/ مكتبة الأنجلو المصرية/ 1973م/ 53- 144). والواقع أن ما قاله د. ذهنى صحيح مائة فى المائة، فمن يرجع إلى كتب الأدب العربى القديم سوف يهوله المقدار الضخم للقِصَص التى تتضمنها تلك الكتب، وكثير منها يعود إلى العصر الجاهلى أبطالاً وموضوعاتٍ وتواريخ. ومن يُردْ أن يتحقق من هذا يمكنه مثلا النظر فى كتاب "قصص العرب" لمحمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى بأجزائه الثلاثة، وهذا الكتاب يحتوى على مئات من القصص يخصّ العصرَ الجاهلىَّ منها قدرٌ غير قليل، وإنْ لزم القولِ بأنه لا يتضمن مع ذلك جميع القصص العربية ولا معظمها بل عيّنات منها فحَسْب، كما أنه لا يتعرض للقصص الطويلة بحال، بل يجتزئ بالقصص ذات الحجم الصغير، تلك القصص التى ينطبق على عدد غير قليل منها شرائط القصة القصيرة كما نعرفها الآن. وهذا مجرد مثال ليس إلا.

وعلى أساسٍ مما مر ينبغى أن نقرأ ما كتبه فاروق خورشيد من أن "العلماء مُجْمِعون على أن العرب فى الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التى تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم. وكتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى يكاد يكون ذخيرة كاملة من القَصَص الذى تتناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم... وليس كتاب "الأغانى" هو المرجع الوحيد فى هذا، بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال "الأمالى" و"صبح الأعشى" و"العِقْد الفريد" و"الشعر والشعراء" وكتب التراجم والطبقات بما لا يدع مجالا للشك فى أن الفن القصصى قد تناول الحياة الجاهلية فى كل مظاهرها، إلا أن الدارسين المُحْدَثين رفضوا بكل بساطة أن يعتبروا هذه القصص فنا نثريا مميزا له أصوله الجاهلية، واعتمدوا فى هذا على أن كل هذه الكتب إنما دُوِّنتْ فى العصر العباسى الذى يبعد بعدا زمنيا كبيرا عن العصر الجاهلى". ويمضى فاروق خورشيد مبينا أن الذين قاموا بتدوين أخبار الجاهليين فى العصر العباسى قد اعتمدوا، إلى جانب الرواية والحفظ، على ما خلفته الجاهلية من كتابات ومدوَّنات، إذ كان التدوين والكِتَاب معروفين عند الجاهليين، "فقد يكون من المعقول" كما يقول "أن ينقل الراوى قصيدة شعر، أما أحداث تاريخ وحكاية حياة فهذه تحتاج إلى تدوين فى نقلها" (فاروق خورشيد/ فى الرواية العربية/ ط3/ دار الشروق/ 1403هـ- 1982م/ 27- 28). بل إنه ليرى أن "الفن الجاهلى الأول كان هو القصة والرواية، أما ما عدا هذا من صُوَرٍ كالخطابة والسجع فلا تعدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة من حاجات الحياة، ودَرْسُها أقرب إلى دَرْس اللغة منه إلى دَرْس الأدب" (المرجع السابق/ 74). ومن كلام خورشيد هذا نخرج بأن عرب الجاهلية لم يكونوا يعتمدون فى حفظ قصصهم على الذاكرة فقط بل على الكتابة فى المقام الأول.

فإذا جئنا إلى الدكتور شوقى ضيف وما أثبته فى كتاب "العصر الجاهلى" فى هذا الصدد ألفيناه يؤكد أن عرب الجاهلية "كانوا يشغفون بالقصص شغفا شديدا، وساعدهم على هذا أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يُرْخِى الليلُ سدولَه يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله: "كان وكان" حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه فى الحديث. وشباب الحى وشيوخه ونساؤه وفِتياته المخدَّرات وراء الأخبية، كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة"، بَيْدَ أنه يستمر قائلا إنهم لم يكونوا يدونون قَصَصهم، بل يتناقلونه شفاها، إلى أن تم تدوينه فى العصر العباسى، ومن ثم لم يصلنا كما كان الجاهليون يروونه. وهذا نص كلامه:

"ليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القصص الذى كان يدور بينهم، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتهى إليهم منه. وطبيعى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته" (العصر الجاهلى/ 399). فعندنا إذن من يقول إن الجاهليين كانوا يدونون تاريخهم وقصصهم كتابة، ومن يقول إنهم لم يكونوا يصنعون شيئا من ذلك. وصاحب هذا الرأى الأخير، وهو الدكتور شوقى ضيف، لا يكتفى بذلك بل يردّ ما جاء عن هشام بن محمد الكلبى من أنه رأى فى بِيَع الحيرة بعض مدوَّناتٍ استخرج منها تاريخ العرب، لأنه متهم فى كثير مما يرويه على حد تعبيره. وهو ما لا يُعَدّ دليلا كافيا، إذ حتى لو كان هذا الاتهام صحيحا فليس معناه أنه كان يكذب فى كل شيء ولا يقول الصدق أبدا، وبخاصة أن ما قاله عن مدوَّنات الحيرة لا يدخل فى باب الخرافات التى لا يقبلها العقل، فقد كان من العرب من يكتب حسبما هو معروف لنا جميعا، وبالذات فى مملكة الحيرة التى كانت تتبع إمبراطورية الفُرْس أصحاب الكتابة والسجلات والدواوين.

وقد أوردنا فى الفصل الخاص بالشعر الجاهلى من هذا الكتاب أنه كان لدى ملوك الحيرة ديوان يضم أشعار فحول الجاهلية ومدائح من مدحهم من شعرائها، وهو يظاهر ما قاله ابن الكلبى ويعضّده. أما قول الأستاذ الدكتور عقب ذلك إنه "حتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدوَّنات لم يكن مكتوبا بالعربية، إنما كان مكتوبا بالسريانية، التى كانت شائعة فى الحيرة قبل الإسلام" فهو مصادرة على المطلوب، إذ معنى كلامه هذا أن كلام ابن الكلبى ليس صحيحا لأنه ليس صحيحا. كيف؟ إنه، بعد أن يفترض أن ما قاله ذلك العالم المسلم صحيح، يعود فيقول إنه لا يمكن أن تكون الكتابات التى رآها عربية بل سريانية. وهو ما يفيد أنه لا يزال يكذب لأنه إنما كان يقصد أنه قرأ ذلك بالعربية، إذ لم يكن يعرف السريانية، وإلا لعُرف ذلك عنه أو لقال إنه استعان فى الاطلاع على ما فيها بمن يعرف السريانية. كما أن سياق الكلام يدل على أن المراد كتابات عربية. ومعنى هذا أنه يقول إنه قرأ الكتابات المذكورة بالعربية، على حين يقول واقع الأمر إنها كانت مكتوبة بالسريانية التى لم يكن يعرفها. أى أنه لم يقرأها على هذا الاحتمال أيضا، وأنه قد كذب هنا كذلك! لكن هل يمكن أن يكون ما قاله د. شوقى فى حق ابن الكلبى سليما؟ أما أنا فلست أستطيع أن أوافق أستاذى الذى أكن له كل الاحترام لأن الذى أعرفه أن مملكة الحيرة كانت مملكة عربية، فلماذا تتحدث مملكة كهذه بلسان السريان لا بلسان العرب؟ كما أن الشعراء العرب الكبار فى الجاهلية كانوا يقصدون ملوكها ويمدحونهم أيضا بالعربية لا بالسريانية، والأستاذ الدكتور لا ينكر هذا بل يثبته فى كتبه التى تتعرض لشعر تلك الحقبة ككتابه الذى بين أيدينا وكتابه عن "الفن ومذاهبه فى الشعر العربى" مثلا. وفوق هذا فإن أسماء ملوكها أسماء عربية لا سريانية. أما إن ثبت مثلا (أقول: مثلا!) أن السريانية كانت تستعمَل فى بعض الطقوس الدينية فهذا شيء آخر غير ما نحن بصدده. إذن فلماذا يجب أن يكون القصص المذكور مكتوبا هو بالذات بالسريانية؟

وثمة خبر كذلك أورده المسعودى فى "مروج الذهب" عن معاوية يدل على أنه كان هناك منذ خلافته على الأقل تدوينٌ كتابىٌّ لما كان الجاهليون يروونه من قصص وحكايات وأسمار، وأن هذا التدوين من ثَمَّ لم ينتظر حتى مجيء العصر العباسى كما يقول د. شوقى ضيف. وهذا هو النص المذكور، وقد ورد فى سياق كلام المسعودى عن المنهج الذى كان معاوية يتبعه فى إنفاق ساعات يومه نهارا وليلا، وهو خاص بسماع العاهل الأموى أخبار العرب وأيامها فى الجاهلية: "ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسِيَر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها

لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطُّرَفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سِير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتَّبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها، فتمرّ بسَمْعه كلَّ ليلة جُمَلٌ من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم". ولدينا أيضا كتاب "أخبار عَبِيد بن شَرِيّة الجُرْهُمِيّ في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، الذى سجل فيه مؤلفه ما كان يقع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار ملوك اليمن. ويذكر ابن النديم أن عَبِيدًا وَفَد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمْر افتراق الناس في البلاد، وكان قد استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل، فأمر معاوية أن يدوَّن ذلك ويُنْسَب إلى عبيد. وهو الكتاب الذى يؤكد المسعودى أن صاحبه هو الوحيد الذى صح وفوده على معاوية من رواة أخبار الجاهلية. قال: "ولم يصحّ عند كثير من الأخباريين من أخبار من وَفَد على معاوية من أهل الدراية بأخبارِ الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عَبِيد بن شَرِيّة وإخباره إياه عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعُّب الأنساب. وكتاب عَبِيد بن شَرِيّة متداوَل في أيدي الناس مشهور".

ترى هل بإمكاننا القول بأن تدوين القصص الجاهلى لم يتأخر به الزمن إلى عصر العباسيين على عكس ما يقول به د. شوقى ضيف؟ ذلك أننا هنا أمام دليل مكتوب يقول إن هذا التدوين قد بدأ منذ أول العصر الأموى، وإن كنا لا نستطيع الجزم على وجه اليقين كما صنع فاروق خورشيد بأن ذلك التدوين قد بدأ فى الجاهلية فعلا، بالضبط مثلما لا نستطيع الجزم بعكسه أيضا. لكن إلى أى مدى نستطيع القول بأن ما كتبه عَبِيد بن شَرِيّة هو قصص جاهلى فعلا؟ إنه يتحدث مثلا عن قوم عاد وما أنزله الله بهم بسبب عصيانهم وكفرهم كما نقرأ فى القرآن المجيد، فهل كان الجاهليون يعرفون ما أورده القرآن فى هذا الصدد من تفصيلات زادتها القصة تفصيلات أخرى كثيرة لم ترد فى الكتاب المجيد؟ وهل كانوا يعرفون فى ذلك الصدد مثل التعبير التالى: "سبع ليال وثمانية أيام حسوما حتى تركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية" حسبما ورد فى كتاب عبيد، وهو تعبير قرآني ورد في سورة "الحاقّة" عند رواية المولى سبحانه قصة هلاكهم؟ ومن ثَمّ فهل نَعُدّ ما تركه لنا عبيد قَصَصًا جاهليًّا أضاف هو إليه تفصيلات إسلامية؟ أم هل نعده قصصا إسلاميا تام الإسلامية على أساس أن الجاهليين، وإن كانوا قد سمعوا بعاد، لم يكن عندهم علم بما وقع بهم تفصيلا من مصائبَ جَرّاءَ كفرهم وتمردهم؟ هذا أمر من الصعب البَتُّ فيه. كذلك لا بد من الإشارة إلى أن القَصَص الجاهلى لم يكن نثرا فحسب، بل كان شعرا أيضا. كما أن كثيرا من القصص العربى المأثور عن الجاهلية أو الذى يتخذ من الجاهلية موضوعا له يختلط فيه الشعر والنثر، وليس نثرا صافيا.

وأول شىء نتعرض له الآن هو: ما مدى تطابق هذه النصوص القصصية مع ما تركه لنا الجاهليون من تلك النصوص؟ فأما النصوص القصصية الشعرية فيغلب على الظن أنها أقرب إلى ما تركه العرب فعلا، على أساس أن الشعر سهل الحفظ بسبب ما يقوم عليه من تركيز ونغم موسيقى، اللهم إلا إذا ثبت أن ثمة تزييفا أو تلاعبا فى النص. وأما النصوص النثرية فحتى لو قبلنا ما تقوله بعض الروايات من أنه كان هناك قصص جاهلى مكتوب فإن هذا لا يسوغ أبدا إطلاق مثل ذلك القول وتعميمه على كل القصص، إذ كانت الكتابة فى الجاهلية محصورة فى نطاق ضيق مما يستبعد الدارس معه التوسع فى كتابة مثل تلك النصوص التى لا علاقة لها بالمعاهدات أو الرسائل الرسمية وما أشبه، وبخاصة إذا علمنا أن مواد الكتابة لدى العرب آنذاك كانت نادرة وبدائية فى غالب الأمر. كذلك قد يقال إن الأسلوب الذى صيغت به تلك النصوص

القصصية لا ينسجم بوجه عام مع ما نعرفه من النصوص النثرية الجاهلية على قلتها من خطبٍ وأمثالٍ وأسجاعٍ كهانٍ، بل ينسجم بالأحرى مع الكتابة العربية بعد تطورها فى العصر العباسى الذى دقت فيه الأفكار ولانت فيه الأساليب ورقت وتلونت ووضح فيها روح التحضر، إلا أنه يمكن مع هذا الرد بأن أسلوب القصص بطبيعته أسلوب بسيط منساب لا يعرف الوعورة ولا الاحتفال اللذين نجدهما فى كثير من الأشعار والخطب الجاهلية أو غير الجاهلية. لكن إلى أى مدى ابتعدت تلك النصوص عن الروايات الأصلية التى كان يتداولها أهل الجاهلية؟ الواقع أنه يصعب جدا، بل يستحيل فى الظروف الحالية القطع بشىء من هذا، وإن كنا نتصور أن الموضوعات قد بقيت كما هى أو ظلت قريبة مما كانت عليه فى الأصل. أما سبب القطع بأن تلك النصوص قد نالها قدر من التحوير فذلك راجع إلى أنها نصوص نثرية لا تعلق بالذاكرة علوق الشعر، الذى رأينا فى الفصل الخاص به أنه هو أيضا لم يسلم تماما من التغييرات الراجعة إلى ما يعترى الذاكرة البشرية من ضعف أو التباس على الأقل. كما أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى بذل الجهد والاهتمام فى حفظ النصوص القصصية مثلما هو الحال فى القرآن الكريم، وكذلك حديث النبى عليه السلام ولكن بدرجة أقل، ولا كانت النصوص القصصية مسجوعة كمواعظ الحنفاء وأحاديث الكهان، أو قصيرة موقَّعة كالأمثال. وفضلا عن هذا فإن القَصَص الجاهلى لا يرتبط بشخص بعينه قد ألّفه على عكس الشعر الذى يُنْسَب، إلا فى الشاذ النادر، إلى هذا الشخص أو ذاك، أما القِصَص فإنها فى الأغلب نتاج جماعى، والجماعة لا تهتم بالتدقيق فى حفظ إبداعها قدر اهتمام الأفراد بإنتاجهم كما هو معروف. بل إنى لأؤكد أن القصاصين أنفسهم هم أول من أدخل التحويرات والتغييرات فى تلك النصوص طبقا لما هو معروف من حكايتهم لها كل مرة بطريقة مختلفة قليلا أو كثيرا عن المرة السابقة بحكم ضعف الذاكرة البشرية والحالة النفسية التى يكونون عليها والجو الذى يحيط بهم أثناء قيامهم بعملية القص... إلخ. فإذا كان هذا هو حال المبدع نفسه، فما بالنا براوى هذا الإبداع؟ ويبقى البناء الفنى لهذا القصص الجاهلى، ولا أظننا بقادرين على البت فى السؤال الخاص بمدى بقاء ما وصلنا من قصص جاهلى على حالته الفنية التى خلّفها لنا قُصّاص الجاهلية. ذلك أننا لا نملك أى مستندات كتابية تصور لنا ما لحقه من تطور رغم ما قيل من أنه كانت هناك بعض الوثائق القصصية المكتوبة التى تركها لنا الجاهليون فى هذا الفن يوما، إذ العبرة بما فى اليد الآن لا بما كان فى أيدى القدماء.

والآن إلى الموضوعات التى تناولتها القصة الجاهلية. ولسوف نسترشد بما اشتمل عليه كتاب "قَصَص العرب" الذى سلفت الإشارة إليه على رغم علمنا بأنه لا يقتصر على القصص الجاهلى وحده. ذلك أن ما يصدق على قصص العرب فى الإسلام من هذه الناحية يصدق أيضا بوجه عام على قصصهم قبله، اللهم إلا ما كان مختصا بهذا أو ذاك دون قَسِيمه، وهو أمر من السهل معرفته فى معظم الأحيان لأول وهلة. ومن ينظر فى فهرس الكتاب الذى نحن بصدده يجد أن أصحابه قد قسموا القصص العربية إلى: قِصَصٍ تستبين بها مظاهرُ حياتهم وأسبابُ مدنيتهم بذكر أسواقهم وأجلاب تجارتهم والمساكن التى كانت تؤويهم وسائر ما كان على عهدهم من دلائل الحضارة ووسائل العيش، وقِصَصٍ تتضمن معتقداتهم وأخبار كهانهم وكواهنهم وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث والدار الآخرة وما كانوا يتوسلون به من إقامة الأوثان وتعهدها بألوان الزُّلْفَى والقربان، وقصص تجلو علومهم ومعارفهم وتتوضَّح منها ثقافتهم وما كان متداوَلا بينهم من مسائل العقل والنقل التي هدتهم إليها فطرهم أو أنهتها إليهم تجاربهم، وقصص يُرَى منها ما كانوا يتغَنَّوْن به من المكارم والمفاخر وما كانوا يتذمَّمون به من المناقص والمعَرّات سواء أكان ذلك يتصل بكل منهم فى نفسه أم فيما يتصل بالأقربين

من ذَويه أم فيما يضم أهل قبيلته أم فيما يشمل الناس جميعا، وقصص تعدد غرائزهم وخصالهم فتكشف ما طُبِعوا عليه من وفرة العقل وحدة الذكاء وصدق الفراسة وقوة النفس وما أهّلتهم له طبيعة بلادهم وأسلوب حياتهم من شريف السجايا وممدوح الخصال، وقصص تشرح ما أُثِر عنهم من عادات وشمائل فى الأسباب الدائرة بينهم وتبين ما انتهجوه فى مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسهم مما يمثل حياتهم الاجتماعية أصدق تمثيل، وقصص تمثل أحوال المرأة العربية وما تجرى عليه فى تربية أطفالها ومعاشرتها زوجها ومعاونتها له فى الحياتين الاجتماعية والمدنية بالسعى فى سبيل الرزق والاشتراك فى خوض معامع الحروب والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة فى ذلك العهد، وقصص تمثل ذلاقة لسانهم وحكمة منطقهم وما ينضاف إلى ذلك من فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى وجمال الأسلوب وحسن التصرف فى الإبانة والتعبير، وقصص تَسْرُد بارع مُلَحهم ورائع طُرَفهم فى جواباتهم المُسْكِتة وتصرفاتهم الحكيمة وتخلصاتهم اللبقة مما يدل على حضور الذهن وسرعة البديهة وشدة العارضة، وقصص تعرب عما يقع بين العامة والملوك والقواد والرؤساء والقضاة ومن إليهم من كل ذى صلة بالحكم والحكّام مما يتناول حِيَلهم فى المنازعات والخصومات ويوضح طرائقم فى رفع الظُّلامات ورَجْع الحقوق وما يجرى هذا المجرى، وقصص تصور احتفاظهم بأنسابهم واعتزازهم بقبائلهم وتمجيدهم للأسلاف وتعديدهم ما تركوا من مآثر وما أدى إليه ذلك من مفاخر ومنافرات، وقصص تنقل ما كانوا يتفكهون به من أسمار ومطايبات ومناقدات وأفاكيه مما نال به المحدِّثون والندماء سَنِىّ الجوائز والخِلَع من الخلفاء والوزراء وما ارتفعت به مكانتهم عند السادة والوجوه فى المجتمعات والمنتديات، وقصص تؤرخ مذكور أيامهم وتفصّل مشهور وقائعهم ومقتل كبرائهم وتصف الحروب والمنازعات التى كانت تدور بين قبائلهم أخذا بالثأر وحماية للذّمَار، وقصص تحكى ما كان للجند من أحداث وأحاديث فى الغارات والغزوات والفتوح مصوِّرةً نفسياتهم وأحوالهم واصفةً تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربية وانفساح رقعتها مفصِّلةً عُدَدهم وآلاتهم وأسلحتهم فى حياتهم الجديدة. ومن الواضح مثلا أن العناوين التى يرد فيها ذكر الخلفاء أو الوزراء أو الدولة العربية وحياتهم الجديدة هى من القصص التى تنتمى إلى تاريخهم الإسلامى لا الجاهلى. ومن الواضح أيضا أن واضعى الكتاب قد ركزوا فى تلك العناوين على الجوانب الطيبة فى الشخصية العربية تعصبا منهم للعرب، وكأن العرب كانوا بلا عيوب، وهو ما يكذبه الواقع ومنطق الحياة، بل يكذبه قبل ذلك كله ما نقرؤه فى تلك القصص نفسها التى بين أيدينا، وإن كنا نتفهم الدوافع التى حَدَتْ بالمؤلفين إلى انتهاج تلك الخطة، إذ كانوا يرَوْن الهجوم الظالم الذى يشنه على أمة العرب أعداؤها الخارجيون وأذنابهم من بين أظْهُرنا فى الداخل، فأرادوا أن يقولوا إن العرب لم يكونوا يوما بهذا السوء الذى يصورهم به هؤلاء وهؤلاء، بل كانت لهم دائما حسناتهم الباهرة وإنجازاتهم الرائعة المعجبة التى يضارعون بها كثيرا من الأمم الأخرى، إن لم يتفوقوا فيها عليهم.

وقد رجع واضعو الكتاب إلى عشرات الكتب التراثية كى ينقلوا منها ما ضمّنوه كتابهم من قصص. والناظر فى عناوين المراجع والمصادر المذكورة فى فهارس ذلك الكتاب يجد أن بعض تلك الكتب تاريخى، وبعضها أدبى، وبعضها قصصى، وبعضها يتعلق بسيرة هذا الشخص أو ذاك، وبعضها من كتب الأمالى، وبعضها من الكتب التى تشرح الأمثال، وبعضها من كتب الموسوعات، وبعضها من كتب الطرائف، وبعضها من دواوين الشعر ومجموعاته وشروحه، وبعضها من كتب التراجم العامة أو الخاصة، وبعضها من كتب السياسة، وبعضها من كتب الشواهد اللغوية... إلخ. ولعل من المستحسن أن نورد هنا بعض أسماء تلك الكتب: فمنها مثلا "أخبار الأذكياء" لابن الجوزى، و"الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، و"الأمالى" للشريف الرضى، و"الأوراق" للصُّولى، و"بلاغات

النساء" لأحمد بن أبى طاهر، و"جمهرة أشعار العرب" لأبى زيد الخطابى، و"الحيوان" للجاحظ، و"زهر الآداب" للحصرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندى، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"الكامل فى الأدب" للمبرِّد، و"الكامل فى التاريخ" لابنِ الأثير، و"المحاسن والمساوئ" للبيهقى، و"المستطرَف من كل فن مستظرَف" للأبشيهى، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموى، و"نقائض جرير والفرزدق" لأبى عبيدة، و"نهاية الأرَب" للنويرى... وهلمّ جرًّا.

والآن إلى شواهد من القَصَص الجاهلى الذى أوردتْه لنا كتب الأدب ودواوين الشعر: ونبدأ بقصيدتَىْ تأبَّطَ شَرًّا فى لقائه بالغول حيث يتحدث عن ذلك الوحش الخرافى حديث المصدِّق بوجوده، إذ كان الإيمان بالغول واحدا من الاعتقادات الجاهلية. وقد يكون تأبط شرا توهَّم رؤية الغول فعلا ثم أضاف إلى وهمه بعض التفاصيل والتحابيش، أو يكون قد اخترع القصة كلها اختراعا، وقد...، وقد... إلا أن الأبيات مع ذلك تصور اعتقادا كان سائدا بين الجاهليين كما ذكرنا، أو فلنقل: إنها تصور خرافة من خرافاتهم. ومعروف أن أهل الريف فى بلادنا إلى وقت قريب كانوا هم أيضا يؤمنون بالغول، وأذكر أننى كنت فى طفولتى أرتعب من ذكر تلك الغول، إذ كان اعتقادنا أنها تنبش القبور وتأكل جثث الموتى، فكنت أتخيلنى وقد مِتُّ ووُسِّدْتُ الثرى فى القبر وتركنى أهلى ومضَوْا إلى بيوتهم لتنفرد بى الغول فى الظلام تأكل لحمى أكلا وتنهش عظامى نهشا، وأنا من العجز فى حالة تامة! وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الاعتقاد قد تقلص إلى حد بعيد ولم أعد أسمع بشىء من ذلك مع انتشار التعليم ودخول الكهرباء القرية. وربما كان تكرُّر حديث شاعرنا فى قصيدتين على الأقل عن الغول راجعا إلى أنه كان كثيرا ما يجوب الصحراء فى الظلام الدامس وحيدا، إذ كان صعلوكا متمردا لا يأوى إلى المجتمعات، بل كان يشكل، مع أمثاله من الصعاليك المتمردين، عصابات لقطع الطريق، فكانت حياتهم قلقا وخوفا وتشردا مستمرا. فإذا أضفنا الجهل الذى كان سائدا آنذاك فى المجتمع العربى تبين لنا أن انتشار مثل تلك الخرافة بين الجاهليين أمر طبيعى تماما، وبخاصة فى ظروف شخص كتأبَّطَ شَرًّا.

وقد تكرر ذكر "الغول" فى شعر العرب قبل الإسلام بما يدل على أن هذه الخرافة كانت تسكن عقول الجاهليين كما قلنا: فمن ذلك قول طارقة الشاعرة الجاهلية، حين اقترن زوجها بامرأة أخرى، إنه قد اتخذ بدلا منها "هوجاء مقّاء كشِبْه الغول". ومنه قول امرئ القيس تهكما بغريم له كان يهدده بالقتل:

أيَقتُلُني وَالمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأنيابِ أغوالِ؟

وقول زهير بن أبى سلمى يصف ناقته:

تُبادِرُ أغوالَ العَشِيِّ وَتَتَّقي عُلالَةَ مَلويٍّ مِنَ القِدِّ مُحصَدِ

والآن إلى القصيدتين اللتين قص فيهما تأبَّطَ شَرًّا حكايته مع الغول، وفيهما يتبدى قصاصا بارع التصوير والتشويق والفكاهة والمقدرة على إجراء الحوار والتحول من السرد إلى الحديث بين بَطَلَىْ قصته فى اقتدار ومهارة، إلى جانب انتقاله فى القصيدة الأولى من الفعل الماضى إلى التعبير بالفعل المضارع عما مضى من وقائع بينه وبين الغول بما يجعلنا نشعر أننا نشاهد حوادث تقع الآن تحت أعيننا لا أمورا مضت وانقضت، كما فى قوله: "فشَدَّت... فأهْوَى لها كَفِّى... فأضْرِبُها... فخَرَّتْ":

ألاَ مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ بِمَا لاَقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ
بِأنِّي قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِي بِشَهْبَاءِ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَقُلْتُ لَهَا: كِلاَنَا نِضْوُ أيْنٍ أخُو سَفَرٍ فَخَلِّي لِي مَكَانِي

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوي فَأَهْوَى | لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولٍ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ | صَرِيعًا لِلْيَدَيْن وَلِلْجِرَانِ
فَقَالَتْ: عُدْ، فَقُلْتُ لَهَا: رُوَيْدًا | مَكَانَكِ إِنَّنِي ثَبْتُ الْجَنَانِ
فَلَمْ أَنْفَكَّ مُتَّكِئًا عَلَيْهَا | لأنْظُرَ مُصْبِحًا مَاذَا أَتَانِي
إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسٍ قَبِيحٍ | كَرَأْسِ الْهِرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
وَسَاقَا مُخْدَجٍ وَشَوَاةُ كَلْبٍ | وَثَوْبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شِنَانِ؟

***

وأدهمَ قد جُبتُ جلبابهُ | كَمَا اجْتَابَتِ الْكَاعِبُ الْخَيْعَلاَ
إِلَى أَنْ حَدَا الصُّبْحُ أَثْنَاءَهُ | وَمَزَّقَ جِلْبَابَهُ الأَلْيَلاَ
عَلَى شَيْمِ نَارٍ تَنَوَّرْتُهَا | فَبِتُّ لَهَا مُدْبِرًا مُقْبِلاَ
فَأَصْبَحْتُ وَالْغُولُ لِي جَارَةٌ | فَيَا جَارَتَا، أَنْتِ مَا أَهْوَلاَ
وَطَالَبْتُهَا بُضْعَهَا فَالْتَوَتْ | بِوَجْهٍ تَهَوَّلَ فَاسْتَغْوَلاَ
فقلتُ لها: يا انظري كي تَرَيْ | فولّت، فكنتُ لها أغْوَلا
فطارَ بقحفِ ابنةِ الجنِّ ذو | سفَاسِقَ قَدْ أخلقَ الْمِحْمَلاَ
إذا كَلَّ أمهيتُهُ بالصَّفا | فحَدَّ وَلَمْ أُرِهِ صَيْقَلاَ
عظَاءَةُ قَفْرٍ لَهَا حُلَّتَا | نِ مِنْ وَرَقِ الطَّلْحِ لَمْ تُغْزلاَ
فمن سالَ: أين ثوت جارتي؟ | فإنَّ لها باللِّوى منزلا

وأما الشاهد الثانى فمن شعر للنابغة الذبيانى يصف فيه مطاردة الكلاب للثور الوحشى حين يطلقها صاحبها عليه أثناء اصطياده لها. ومثل تلك القصة التى تتكرر كثيرا فى الشعر الجاهلى تدل على شيوع صيد الثور الوحشى فى بلاد العرب قبل الإسلام. والأبيات مأخوذة من معلقة الشاعر المشهورة، ولا ينبغى أن يفوتنا ما تتميز به تلك الأبيات من وصف مفعم بالحيوية والدقة فى التشبيه والتنبه للتفصيلات الموحية. ولا بد من التنبيه ثانية إلى أن القصة التى نحن بصدد الكلام عنها لا تستقل بقصيدة كاملة، بل تشكل فقط جزءا من قصيدة أكبر، شأنها فى ذلك كشأن أغلب القصص الجاهلى الشعرى:

كأنّ رَحْلي، وقد زالَ النّهارُ بنا | يومَ الجليلِ على مُستأنِسٍ وحِدِ
من وحشِ وجرةَ موشيٍّ أكارعهُ | طاوي المصيرِ كسيفِ الصّيقلِ الفَرَدِ
سرتْ عليه من الجوزاءِ سارية | تُزجي الشَّمالُ عليهِ جامِدَ البَرَدِ
فارتاعَ من صوتِ كلاّبٍ فباتَ له | طوعَ الشّوامتِ من خوفٍ ومن صرد

فبثّهــنّ عليــهِ واستَمرّ بِــهِ ... صُمْـعُ الكُعوبِ بريئـاتٌ من الجَـرَدِ
وكان ضُمْرانُ منه حيثُ يُوزِعُـهُ ... طَعْـنَ المُعارِكِ عند المُحجَـرِ النّجُـدِ
شكَّ الفَريصـةَ بالمِـدْرى فأنفَذَهـا ... طَعْـنَ المُبَيطِرِ إذ يَشفي مِـنَ العَضَـدِ
كأنّه، خارجـا مـن جنبِ صَفْحَتَـهِ ... سَفّودُ شَـرْبٍ نَسُـوهُ عنـدَ مُفْتـأدِ
فظَلّ يَعْجمُ أعلى الـرَّوْقِ مُنقبضًا ... في حالكِ اللونِ صدقٍ غيـر ذي أودِ
لمـا رأى واشـقٌ إقعـاصَ صاحبـهِ ... ولا سَبيـلَ إلـى عَـقـلٍ ولا قَـوَدِ
قالت لـه النفسُ : إني لا أرى طمعـًا ... وإنّ مـولاكَ لـم يسلـمْ ولم يصـدِ

كـذلك تـصور الأبيـات التاليـة، وهـى لامـرئ القـيس، واقعـة مـن وقـائع الـصيد، إلا أن الفريـسة هنـا أرنــبٌ بَـرّىّ لا ثــورٌ وحــشى، ثــم تنتهــى بالحـديث عــن تنــاول الطعام بعد انتهاء المطاردة بالنجاح، فهى إذن قصة من قصص القنص واللهو:

كأنّ غُلامـي إذْ عَـلا حَـالَ مَتْنِـهِ ... عَـلى ظَهْـر بَـازٍ في السّمـاءِ محَـلّقِ
رَأى أرْنَبًا فانقَـضّ يَهْـوي أمَامَـهُ ... إلَيْهَـا وَجَلاّهَـا بِطَـرْفٍ مُلَقْلَـقِ
فقُلتُ لَـهُ:صَـوِّبْ وَلا تَجْهَـدَنّـهُ ... فيـذرك من أعلـى القطـاة فتزلَـقِ
فأدبـرنَ كالجَـزْع المفصَّـل بينـه ... بجيـدِ الغُـلام ذِي القميـصِ المُطوَّقِ
وَأدرَكَهُـنّ ثَانِيـًا مِـنْ عِنَـانِـهِ ... كغيـثِ العَشِـيّ الأقهـبِ المتـودّقِ
فصاد لنـا عَيْـرًا وثـورًا وخاضبًـا ... عِـدَاءً وَلـمْ يَنضَـحْ بمـاءٍ فيَعْـرَقِ
وَظَـلّ غُلامي يُضْجِعُ الرُّمحَ حَوْلـه ... لِكُـلّ مَهَـاةٍ أوْ لأحْقَـبَ سَـهْـوَقِ
وقام طـوال الشخـص إذ يخضبونـه ... قِيَـامَ العَزيـز الفَارِسـيِّ المُنَـطَّقِ
فَقُلنَـا: ألا قَد كانَ صَيْـدٌ لِقَانِـصٍ ... فخَبّوا عَلَينـا كُـلَّ ثَـوْبٍ مُـزَوَّقِ
وَظَـلّ صِحَابـي يَشْتَـوُون بنَعْمَـةٍ ... يصفّـون غــارًا باللكيـكِ الموشّـقِ

أمــا الأبيــات التــى نحــن مقبلــون عليهــا الآن، وهــى للمَلِــك الــضِّلِّيل أيــضا، فتتوســع فــى الحــديث عــن نزولــه هــو وأصـحابه فــى بعـض الطريــق بغيــة الأكــل والاســتراحة حيـث نـصبوا لأنفـسهم مـا يـشبه الخيمـة يـستتترون بهـا، ثـم راحـوا بعـد ذلك يتنـاولون مـا أعـدوه مـن شـواء لـم يجـدوا بـدا حـين انتهـوا منـه مـن مـسح أيـديهم فـى أعـراف خيـولهم لعـدم وجـود مناديـل معهـم. كـذلك لـم يَفُـت الـشاعر التلفـتُ حولـه وتـسجيلُ مـا كـان يـراه مـن حيـوان وحـشى يقـف علـى مقربـة مـنهم ويتطلـع إلــيهم بعيونــه التــى تـشبه حبـات الجَـزْع غيـر المثقـوب كمـا يقـول، والجَـزْع حجـر كـريم تُتَّخَـذ منـه العقـود التـى تـزين نحـور الجمـيلات، وهـو تـشبيه عجيـب. وهنـاك كلمـة ليـست شـائعة الاسـتعمال فـى الأدب العربـى حتـى فـى القـديم منـه هـى كلمـة "نَمُـش"، ولهـا علـوق بالقلـب رغـم ذلـك. وهـى قريبـة مـن "نَمَـس"، وإن لـم

يقتصر معناها على مجرد المس، بل تضم إليه أيضا معنى مسح اليد فى شىء خشن بغية إزالة ما علق بها من دسم. وهذه هى الأبيات:

وقلت لفتيانٍ كرامٍ: ألا انزلوا ... فعالَوْا علينا فَضْل ثوبٍ مطنَّبِ
وأوتاده مازيّةٌ، وعِمَاده ... رُدَيْنِيّةٌ فيها أسنّةُ قُعْضُبِ
وأطنابه أشطان خُوصٍ نجائبٍ ... وصهوته من أتْحَمِيٍّ مشرعَبِ
فَلَمّا دَخَلناهُ أضَفنا ظُهورَنا ... إلى كُلِّ حاريٍّ جَديدٍ مُشطَّبِ
فظلّ لنا يوم لذيذ ونعمة ... فقُلْ في مَقِيلٍ نَحْسه متغيّبِ
كأنّ عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحُلِنا الجَزعُ الذي لم يثقّبِ
نَمُشّ بأعراف الجياد أكُفّنا ... إذا نحن قمنا عن شواء مضهّبِ
إلى أن تروّحْنا بلا متعنّتٍ ... عليه كسِيد الردهة المتأوّبِ

ونظل مع امرئ القيس فى لهوه، ولكن فى غير ميدان القنص، أو قل: إنه فى ميدان القنص أيضا، إلا أنه قنص من نوع آخر، قنص المرأة لا قنص الحيوان. وفى الأبيات التى سنوردها من فَوْرنا يروى لنا الشاعر، صدقًا أو كذبًا، بعض مغامراته فى دنيا النساء حيث يتبدى شخصا عابثا فاجرا لا يرعوى عن فاحشة، بل يباهى بما يجترحه من عدوان على الحرمات والأعراض حين يتسلل فى جنح الليل البهيم إلى حيث اتَّعَد مع إحدى صواحبه فى الخلاء، أو إلى حيث يقتحم على أخرى خباءها، وهى تناشده أن يتركها ولا يفضحها، إلا أنها مناشدة غير صادقة فيما يبدو، وإلا ما استجابت له رغم ذلك وتمادت معه فيما أراده منها... إلخ. وهو فى كل ذلك يصف حبيباته وصفًا حيًّا عجيبًا ويحكى ما وقع منهن ومنه غير متحرج من شىء، مُوردًا كثيرا من التفصيلات الدالة التى تعيد لنا المنظر والحدث كأنهما ابنا اللحظة، مشهِّرًا بهن لما مَرَد عليه من استهتار، إذ كان ابنَ مَلِكٍ لا يبالى بما يأتى أو يَدَع. وعجيب أنه، حين يصور ما يقع من النساء من تصرفات أو ما يصدر عنهن من كلام، قادر على تقمصهن فكأن امرأة هى التى تتكلم أمامنا أو تتصرف لا أننا نقرأ شعرا:

ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خدر عُنيزةٍ ... فقالت: لك الويلات إنكَ مُرجِلي
تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معًا: ... عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيس، فانزلِ
فقُلتُ لها: سيري وأرْخي زمامَهُ ... ولا تُبعديني من جَنَاك المعلَّلِ
فمِثْلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومرضِعٍ ... فألهيتُها عن ذي تمائمَ محْوِلِ
إذا ما بكى من خلفها انْصَرَفَتْ لهُ ... بشِقٍّ، وَتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ
ويومًا على ظهر الكثيبِ تعذَّرت ... عَليّ وآلَتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّلِ
أفاطِمُ، مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ ... وإن كنتِ قد أزمعت صرْمي فأجملي
وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ ... فسُلّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسُلِ

أغَرّكِ مني أنّ حبُّكِ قاتِلي ... وأنكِ مهما تأمري القلب يفعلِ؟

ومَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتَضْربي ... بسَهْمَيكِ في أعشار قَلْبٍ مُقتَّلِ

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خباؤها ... تَمَتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ

تجاوزْتُ أحْراسًا إلَيها ومَعْشَرًا ... عليّ حِراصًا لو يُسِرّون مقتلي

إذا ما الثريا في السماء تعرضت ... تعرُّضَ أثناء الوشاح المفصَّلِ

فجِئتُ وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثيابَها ... لدى السِّتر إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ

فقالت: يمين الله ما لكَ حيلةٌ ... وما إن أرى عنك الغوايةَ تنجلي

خَرَجْتُ بها أمشي تَجُرّ وَراءَنا ... على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فلما أجزْنا ساحة الحيِّ وانتحى ... بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقَلِ

هصرتُ بِفَوْدَيْ رأسها فتمايلت ... عليَّ هضيمَ الكَشحِ رَيّا المُخَلخَلِ

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ... ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

كبِكْرِ المُقاناةِ البَياضِ بصُفْرةٍ ... غذَاها نميرُ الماء غير المحلَّلِ

تصدّ وتُبْدِي عن أسيلٍ وتتَّقي ... بناظرَةٍ من وَحْش وَجْرَةَ مُطْفِلِ

وجيد كجِيد الرئم ليس بفاحِشٍ ... إذا هيَ نَصّتْهُ وَلا بمُعَطَّلِ

وفرعٍ يُغَشِّي المتنَ أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقِنْو النخلةِ المتعثكلِ

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العُلَى ... تضِلّ المداري في مُثَنًّى ومُرْسَلِ

وكَشْحٍ لطيفٍ كالجديل مخصَّرٍ ... وساقٍ كأنبوبِ السَّقِيّ المُذَلَّلِ

وَتَعْطو برَخْصٍ غير شَثْنٍ كأنّهُ ... أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسْحلِ

تُضيء الظلامَ بالعشاء كأنها ... منارةُ مُمْسَى راهبٍ متبتِّلِ

وَتُضْحي فَتِيتُ المِسكِ فوق فراشها ... نؤومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفضُّلِ

إلى مثلها يرنو الحليمُ صبابةً ... إذا ما اسبكَرّتْ بينَ درْعٍ ومِجْوَلِ

تسلّتْ عَمايات الرجالِ عن الصِّبا ... وليس صِبايَ عن هواها بمُنْسَلِ

ألا رُبّ خَصْمٍ فيكِ ألْوَى رَدَدْتُه ... نصيحٍ على تَعْذَالِه غيرِ مُؤْتَلِ

وتبقى الأبيات التالية، وهى لسلامة بن جندل، وفيها يصور انتصار قومه على أعدائهم ساردا ما وقع لكل واحد من كبار محاربى أولئك الأعداء: فمنهم

من صُرع فى التراب، ومنهم من نجّاه الفرار من الهلاك، إذ نالته طعنة كان من شأنها أن تُرْدِيَه قتيلا لولا أن أجله لم يحن بعد، ومنهم من وقع أسيرا فى أيديهم فاقتادوه إلى مضاربهم مكبلا بالأغلال تتفرج عليه نساء القبيلة ويشمتن به وبقومه. وكما نرى فهو يطلعنا فى كل لوحة على صورة من صُوَر تلك الهزيمة التى مُنِىَ بها هؤلاء الأعداء. والملاحظ أنها مجرد سرد ووصف لا حوار فيها ولا توسع فى التفاصيل، إلا أن الروح القصصية ظاهرة فيها رغم ذلك:

ومَن كانَ لا تُعتَدُّ أيّامُهُ لَهُ ... فأيّامُنَا عَنَّا تُجَلِّي وتُعْرِب

جَعلَنا لَهمْ ما بَينَ كُتلة رَوْحَةٍ ... إلى حيثُ أوفى صوّتيهِ مثقّبُ

غداةَ تركنا في الغبار ابن جحدرٍ ... صَرِيعا، وأطرافُ العَوالي تَصبّبُ

لَقُوا مِثلَ ما لاقَى اللُّجَيْمِيُّ قَبلَهُ ... قتادةَ لمَّا جاءنا وهو يطلبُ

فآبَ إلى حجرٍ، وقد فضَّ جمعهُ ... بأخيثِ ما يأتي به متأوّبُ

وقد نالَ حدُّ السيفِ منْ حُرّ وجههِ ... إلى حيثُ ساوى أنفهُ المتنقّبُ

وجشّامةُ الذُّهليُّ قد وسِجتْ به ... إلى أهلِنا مَخزومةٌ، وهْوَ مُحْقَبُ

تَعرَّفُهُ وسْطَ البُيوتِ ربائبٌ ... من أحسابِ شيبانَ تثقبُ

وهوذةَ نجَّى بعدَ ما مالَ رأسهُ ... يَمانٍ إذا ما خالَطَ العَظمَ مِخدَبُ

فأمسَكَهُ مِن بَعدِ ما مال رأسُهُ ... حِزامٌ على ظَهرِ الأغَرِّ وقَيقَبُ

غداةَ كأنَّ ابني لجيمٍ ويشكرًا ... نعامٌ بصحراءِ الكديدينِ هُرَّبُ

وننتقل إلى القصص النثرى الجاهلى، وهأنذا أورد بعضا من نماذجه المبثوثة فى كتب الأدب المختلفة، ونبدأ بكتاب "أخبار النساء" لابن الجوزى الذى نقرأ فيه القصة التالية، وهى قصة من قصص العشق والمؤامرات تتمتع بمستوى فنى راق: ففيها العقدة، وفيها التشويق، وفيها الرسم المتقن للشخصيات، وفيها الحوار المحكم الموجز المُنْبِى عن طبيعة المتحدثين، وفيها النهاية التى تجمع بين المفاجأة وعدم مصادمة منطق الحياة فى نفس الآن. وهى ترينا أن الطبيعة البشرية، مهما يكن من علوّ نفس صاحبها، لا تسلم عادةً من بعض العيوب التى قد تكون عيوبا مخيفة كما هو الحال فى أمر النعمان بن المنذر. كما تقوم العقدة فيها على المكر وأخذ الآخرين بالحيلة الخفية الدقيقة التى تخدع المحتال عليه وتوهمه أنها تبغى مصلحته، ليكتشف فى النهاية بعد أن تقع الفأس فى الرأس، أنه كان ضحية حيلة مزعجة حيكت بمهارة شديدة فلم يتبين له ساعتَها وجهُ الحق فيها. ولا ينبغى أن يفوتنا هنا النص على اختلاط النثر والشعر فى القصة، وإن اقتصر العنصر الشعرى هنا على بيت واحد فى النهاية. ولنلاحظْ كيف رُوِيَت القصة كما كانت تُرْوَى الأحاديث النبوية والأخبار التاريخية وكثير من حكايات العرب وأقوالهم، وذلك باتباع أسلوب العَنْعَنَة، إذ بدأت على النحو التالى: "حكى الهيثم بن عَدِيّ عن الكَلْبِيّ قال: كان مُلْك النّعمان بن المنذر أربعين سنةً لم يُرَ منه في مُلْكه سقطة غير هذه: وذلك أنّه ركب يومًا فنظر إلى امرأةٍ خارجةٍ من الكنيسة فأعجبه جمالها وحسنها وهيئتها، فقال: علىّ بِعَدِيّ بن زيد، وكان كاتبَه وخاصّتَه. فقال له: يا عَدِيّ، قد رأيت امرأةً لئن لم أظفر بها إنّه هو الموت. فلا

بدّ في أن تتلطّف في الجمع بيني وبينها. قال: ومن هي؟ قال: قد سألتُ عنها فقيل لي: امرأة حَكَم بن عوف، رجلٌ من أشراف أهل الحيرة. قال: فهل أعْلَمْتَ بذلك أحدًا؟ قال: لا. قال: فاكتمه. فإذا أصبحتَ فجُدْ بكلّ كرامةٍ لنَزيلِك. يريد حَكَم بن عوف. فلمّا أذِن للنّاس بدأ به وأكرمه وأجلسه معه على سريره، فأعْجَب النّاسَ حالُه وتحدّثوا به. فلمّا أمسى فأذِن للنّاس بدأ به فأكرمه وأجلسه معه وكساه وحمّله، ففعل به ذلك أيّامًا. ثمّ قال له عدي: أيّها الملك، عندك عشر نسوةٍ، فطلّقْ أقلّهنّ عنك منزلةً ثمّ قل له: فليتزوّجها. ففعل، فلمّا دخل عليه قال له: يا حكم، إنّي قد طلّقت فلانةً لك فتزوَّجْها. فقال حكم لعدي: ما صنع الملك بأحد ما صنع بي، ولا أدري بم أكافئه. فقال له عدي: طلّق امرأتك كما طلّق امرأته. ففعل، وحَظِيَ عدي بها عند الملك، وعلم الرّجل أنّه مَكَر به في امرأته. وفيها يقول بعض أهل الحيرة:

ما في البرّيّة من أنثى تعادلها إلاّ التي أخذ النّعمان من حَكَمِ"

أما القصة التالية، وهى مأخوذة من كتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، فبطلها كُلَيْب بن ربيعة، وهو شيخ قبيلة مستبد لا يبالى بكرامة أحد ولا بحقوقه، بل يعامل الجميع بعَسْفٍ وتعالٍ واحتقارٍ لا يُعْفِى أحدا من ذلك ولو كان صهرا له، مما أدى فى النهاية إلى أن قتله أخو زوجته واضعًا بذلك أخته فى كرب عظيم، إذ كانت بين نارين: نار الحزن على مقتل زوجها، ونار الخوف من انتقام أهله من أخيها. يقول أبو الفرج فى ذلك:

"وكان السبب في قتل كليب بن ربيعة... أن كُلَيْبًا كان قد عَزّ وساد في ربيعة فبَغَى بَغْيًا شديدًا. وكان هو الذي يُنْزلهم منازلهم ويرحِّلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره. فبلغ من عزه وبَغْيه أنه اتخذ جَرْو كلب، فكان إذا نزل منزلاً به كَلأٌ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه. وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يَردُها أحد إلا بإذنه أو مَنْ آذَنَ بحرب، فضُرب به المثل في العز فقيل: أعزّ من كُلَيْب وائل. وكان يحمي الصيد ويقول: صيد ناحية كذا وكذا في جواري، فلا يصيد أحد منه شيئًا. وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يحتبي أحد في مجلسه غيره، فقتله جساس بن مرة... وكان كليب بن ربيعة ليس على الأرض بَكْريٌّ ولا تَغْلِبيٌّ أجارِ رجلاً ولا بعيرًا إلا بإذنه، ولا يحمي حِمًى إلا بأمره، وكان إذا حمي حِمًى لا يُقْرَب. وكان لمُرّة بن ذُهْل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جسّاسٌ أصغرهم، وكانت أختهم عند كليب. وخالة جساسٍ البَسُوسُ، فجاءت فنزلت على ابنِ أختها جساس فكانت جارةً لبني مُرّة، ومعها ابن لها، ولهم ناقة خوّارة من نَعَم بني سعد، ومعها فَصِيل. أخبرني علي بن سليمان قال: قال أبو برزة: وقد كان كليب قبل ذلك قال لصاحبته أخت جساس: هل تعلمين على الأرض عربيًّا أمنع مني ذِمّةً؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة فقالت: نعم أخي جساس ونَدْمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذُهْل بن شيبان. وزَعَم مقاتل أن امرأته كانت أخت جساس. فبينا هي تغسل رأس كليب وتسرّحه ذات يوم إذ قال: مَنْ أعَزُّ وائل؟ فصمتت، فأعاد عليها. فلما أكثر عليها قالت: أخواي جساس وهمام! فنزع رأسه من يدها وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس خالة جساس وجارة بني مُرّة فقتله، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا على ذلك. ثم لقي كليبٌ ابنَ البسوس فقال: ما فعل فصيل ناقتكم؟ قال: قتلتَه وأخليتَ لنا لبن أمه. فأغمضوا على هذه أيضًا. ثم إن كليبا أعاد على امرأته فقال: من أعز وائل؟ فقالت: أخواي. فأضمرها وأسرّها في نفسه وسكت حتى مرت به إبل جساس فرأى الناقة فأنكرها، فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. قال: أوقد بلغ من أمر ابن السعدية أن يُجِير عليَّ بغير إذني؟ ارم ضرعها يا غلام. قال فراس: فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها، وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر، فقال: احلبوا لها مكيالَيْ لبنٍ بمحلبها، ولا تذكروا لها من هذا شيئًا. ثم أغمضوا عليها أيضًا. قال مقاتل: حتى أصابتهم

سماء، فغدا في غِبّها يتمطر. وركب جساس بن مرة وابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل، وقال أبو برزة: بل عمرو بن أبي ربيعة، وطعن عمرو كليبًا فحطم صلبه. وقال أبو برزة: فسكت جساس حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكر بن وائل على نِهْيٍ يقال له: شبيث، فنفاهم كليب عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على نِهْيٍ آخر يقال له: الأحصّ، فنفاهم عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على بطن الجَريب فمنعهم إياه فمضَوْا حتى نزلوا الذنائب، واتّبعهم كليب وحيُّه حتى نزلوا عليه. ثم مر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب فقال: طردتَ أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون. فمضى جساس ومعه ابن عمه المزدلف. وقال بعضهم: بل جساس ناداه فقال: هذا كفعلك بناقة خالتي. فقال له: أَوَقَدْ ذَكَرْتَها؟ أما إني لو وجدتها في غير إبل مُرّة لاستحللت تلك الإبل بها. فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حضنيه، فلما تداءمه الموت قال: يا جساس، اسقني من الماء. قال: ما عَقَلْتَ استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه؟ قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة فاحتزّ رأسه".

والآن أود من القارئ أن يطالع القصة التالية التى تختلف عما مر بنا حتى الآن من قصص، إذ هى قصة رمزية بعضُ أبطالها من الحيوان الذى يتكلم كما يتكلم الآدميون، ويشعر كما يشعر الآدميون، ويجادل كما يجادل الآدميون، وعنده الحكمة والحذر كما عند الآدميين. جاء فى كتاب "الأمثال" للمفضَّل الضَّبِّىّ: "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأجدبت بلادهما، وكان قريبًا منهما وادٍ فيه حية قد حمته من كل واحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المُكْلِئ فرعيْتُ فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية. ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكتْه؟ قال: فوالله لأهبطنّ. فهبط ذلك الوادي فرعى إبله به زمانًا، ثم إن الحية لدغته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبنّ الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخي. فهبط ذلك الوادي فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلتُ أخاك؟ فهل لك في الصلح فأدَعَك بهذا الوادي فتكون به وأعطيك ما بقيت دينارًا في كل يوم؟ قال: أفاعلةٌ أنتِ؟ قالت: نعم. قال: فإني أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله ونمت إبله حتى كان من أحسن الناس حالا. ثم ذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس فأحَدّها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، فلما رأى ذلك وتخوف شَرّها نَدِم وقال لها: هل لكِ فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف أعاودك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالي العهد؟ فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهورًا من أمثال العرب".

ومن هذا النص يتبين لنا أن قَصَص الحيوان فى الأدب العربى لم ينتظر حتى يضع ابن المقفع كتابه: "كليلة ودمنة"، إذ ها هم أولاء الجاهليون يجعلون من الحيوانات أبطالا لقصصهم، ويُنْطِقونهم بذات اللغة التي يتحدثونها، ويُضْفُون عليهم سائر الخلال البشريةكما سلف القول. وهناك قِصَصٌ جاهليةٌ أخرى عن الحيوان: منها قصة قيام الضَّبّ بالقضاء فى الخصومة التى كانت بين الأرنب والثعلب، وقصة الضب والضفدع، وقصة الغراب الذى أراد أن يقلد العصفور، وقصة النعامة التى ذهبت تطلب قرنين، وقصة بِرّ الهدهد بأمه، وقصة الرَّخَم الحكيم. وكذلك قصة الغراب والديك، وفيها أن الديك كان نديما للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن بعد أن رهن صديقه عند الخمار، لكنه غدر به فبقى فى الحبس. وهناك أيضا قصة الضبع والذئب، وملخَّصها أن الضبع وجدت تمرة فاختلسها الذئب فلطمته فتحاكما إلى الضب، فقالت: يا أبا الخَسِيل. قال: سميعًا دعوت. قالت: جئناك نحتكم إليك. قال: في

بيته يُؤْتَى الحَكَم. قالت: إني التقطت تمرة. قال: حُلْوًا جنيت. قالت: إن الثعلب أخذها. قال: حَظَّ نفسه بَغَى. قالت: لطمتُه. قال: أشْفَيْتِ، والبادي أظلم. قالت: فلطمني. قال: حُرٌّ انتصر لنفسه. قالت: اقْضِ بيننا. قال: قضيت"... وغير ذلك مما يجده القارئ فى "الحيوان" للجاحظ و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة و"الأذكياء" لابن الجوزى و"خزانة الأدب" للبغدادى وغيرها.

وأترك هنا القارئ مع القصة التالية، وأبطالها من الملوك ورجال البلاط، وتدور حول ضعف البشر أمام نداء قلوبهم حتى لو عرفوا أن فى ذلك حتفهم. وهى قصة الزَّبّاء وجَذِيمة الأبرش المشهورة، وقد أخذناها من كتاب ابن الجوزى: "الأذكياء": "قال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كان جَذِيمة بن مالك ملكًا على الحيرة وما حولها من السواد. مَلَكَ ستين سنة، وكان به وضَح، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد، فنُهِيَت العرب أن يقولوا: الأبرص، فقالوا: الأبرش. فغزا مليحَ بن البرء، وكان ملكًا على الحضر، وهو الحاجز بين الروم والفرس، وهو الذي ذكره عَدِيّ بن زيد في قصيدة منها هذا البيت:

وأخو الحضْر إذ بناه وإذ دجلة تُجْبَى إليه والخابور

فقتله جذيمة وطرد الزباء إلى الشام فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة. قال ابن الكلبي: لم يكن في نساء عصرها أجمل منها. وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جلَّلها فسُمِّيتْ: الزباء. قال الكلبي: وبُعِث عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها ومَلَكَتْها، فأزالت جذيمةَ الأبرش عنها وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرقي الفرات ومن غربيه وجعلت بينهما نفقًا تحت الفرات. وكان إذا راهقها الأعداء أوت إليه وتحصنت به. وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء، وكان بينها وبين جذيمة بعد الحرب مهادنة. فحدَّث جذيمة نفسَه بخِطْبتها فجمع خاصّته فشاورهم في ذلك، وكان له عبد يقال له: قصير بن سعد، وكان عاقلاً لبيبًا، وكان خازنَه وصاحبَ أمره وعميدَ دولته. فسكت القوم وتكلم قصير فقال: أَبَيْتَ اللعن أيها الملك، إن الزباء امرأة قد حرَّمت الرجال فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال، ولها عندك ثأر، والدم لا ينام. وإنما هي تاركتك رهبةً وحذارَ دولة. الحقد دفين في سويداء القلب له كُمُون ككُمُون النار في الحَجَر، إن اقتدحتَه أوْرَى، وإن تركته توارى. وللمَلِك في بنات الملوك الأكْفاء متَّسع، ولهن فيه منتفَع. وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظّم شأنك، فما أحد فوقك. فقال جذيمة: يا قصير، الرأي ما رأيتَ، والحزم فيما قلتَه، ولكن النفس تواقة إلى ما تحب وتهوَى، ولكل امرئ قَدَرٌ لا مفر له منه ولا وَزَر. فوجَّه إليها خاطبًا وقال: ائت الزباء فاذكر لها ما يرغّبها فيه وتصبو إليه. فجاءتها خِطْبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: انْعَمْ بك عَيْنًا وبما جئتَ به وله. وأظهرتْ له السرور به والرغبة فيه وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنتُ أضربتُ عن هذا الأمر خوفًا أن لا أجد كفؤًا. والملك فوق قدري، وأنا دون قدره، وقد أجبتُ إلى ما سأل ورغبتُ فيما قال. ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرتُ إليه ونزلتُ عليه. وأهدتْ إليه هديةً سَنِيّة: ساقت العبيد والإماء والكُرَاع والسلاح والأموال والإبل والغنم، وحملتْ من الثياب والعَيْن والوَرق. فلما رجع إليه خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف وظن أن ذلك لحصول رغبة، فأعجبته نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصيرٌ خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عَدِيّ اللَّخْمِيّ، وهو أول ملوك الحيرة من لخم. وكان مُلْكه عشرين ومائة سنة، وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي، وردَّته وقد شب ونبر. فقالت أمه: أَلْبِسوه الطوق. فقال خاله جذيمة: شب عمرو عن الطوق، فصارت مثلاً. فاستخلفه وسار إلى الزباء فلما صار ببقَّة نزل وتصيد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه فسكت القوم وافتتح الكلامَ قصيرُ بن سعد، قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيَّد بحزم فما يكون. فلا تثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فيَفْسُد، ولا الحزم بالمنى فيَبْعُد. والرأي عندي للملك أن يعتقب أمره بالتثبت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمتُ على المِلِك عزمًا بَتَّا

ألاّ يفعل. فأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك وصوّبوا رأيه وقَوَّوْا عزمه. فقال جذيمة: الرأي للجماعة، والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدَر يسابق الحذَر، ولا يطاع لقصير أمر. فأرسلها مثلاً. وسار جذيمة، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يُحْمَل إليه الأنزال والعلوفات، وقالت لجندها وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيتها: تلقَّوْا سيدكم ومَلِك دولتكم. وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيرًا فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم، قد زادت بصيرتي فيه. أفأنت على عزمك؟ قال: نعم، وقد زادت رغبتي فيه. قال قصير: ليس للأمور بصاحب، من لم ينظر في العواقب. وقد يُسْتَدْرَك الأمر قبل فواته. وفي يد المَلِك بقية هو بها مسلَّط على استدراك الصواب، فإن وثقتَ بأنك ذو مُلْك وعشيرة ومكان فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك وألقيتَها في يَدَيْ من لست آمَنُ عليك مكره وغدره. فإن كنتَ ولا بد فاعلاً لهواك تابعًا فإن القوم إن تلقَّوْك غدًا فِرَقًا وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم فالأمر بَعْدُ في يدك، والرأي فيه إليك. وإن تلقَّوْك رَزْدَقًا واحدًا وأقاموا لك صفين حتى إذا توسطتهم انقضوا عليك من كل جانب فأحدقوا بك فقد ملكوك وصرتَ في قبضتهم. وهذه العصا لا يُشَقّ غبارها. وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجاري الريح يقال لها العصا. فإذا كان كذلك فتملَّكْ ظهرها، فهي ناحية بك إن ملكت ناصيتها. فسمع جذيمة ولم يردّ جوابًا، وسار. وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة غدًا فتلقَّوْه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم فتعرّضوا عليه من كل جانب حتى تُحْدِقوا به، وإياكم أن يفوتكم. وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القوم رزدقًا واحدًا أقاموا له صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأجدل على فريسته فأحدقوا به، وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسايره فأقبل عليه وقال: صدقتَ يا قصير. فقال قصير: أيها الملك، أبطأتَ بالجواب حتى فات الصواب. فأرسله مثلاً. فقال: كيف الرأي الآن؟ قال: هذه العصا، فدُونَكَها لعلك تنجو بها. فأنِفَ جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه فصار على ظهر العصا وأعطاها عِنَانها وزجرها، فذهبت تَهْوي به هُوِيّ الريح. فنظر إليه جذيمة وهي تطاول به، وأشرفت الزباء من قصرها فقالت: ما أحسنكَ من عروس تُجْلَى عليّ وتُزَفّ إليّ، حتى دخلوا به إلى الزباء ولم يكن معها في قصرها إلا جَوَارٍ أبكارٍ أتراب. وكانت جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفةٍ كل واحدة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي، وهي بينهن كأنها قمر قد حفّت به النجوم تزهو. فأمرت بالأنطاع فبُسِطَتْ، وقالت لوصائفها: خذوا بيد سيّدكن وبَعْل مولاتكنّ. فأخذن بيده فأجْلَسْنه على الأنطاع بحيث يراها وتراه وتسمع كلامه ويسمع كلامها، ثم أمرت الجواري فقطعن رواهشه، ووضعت الطَّسْت تحت يده، فجعلت تشخب في الطست، فقطرت قطرة على النِّطْع، فقالت لجواريها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يحزنك دم أراقه أهله. فلما مات قالت: والله ما وَهَى دمُك ولا شَفَى قتلُك، ولكنه غَيْضٌ من فَيْض. ثم أمرت به فدُفِن. وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عَمْرَ بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفي الأثر عن خاله، فخرج ذات يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوي به فرسه هُوِيّ الريح، فقال: أما الفرس ففرس جذيمة، وأما الراكب فكالهيمة. لأمر ما جاءت العصا. فأشرف عليهم قصير فقالوا: ما وراءك؟ قال سعى المقدَّر بالمِلِك إلى حتفه، على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب بثأرك من الزباء. فقال عمرو: وأي ثأر يُطْلَب من الزباء، وهي أمنع من عُقَاب الجو؟ فقال قصير: قد علمتَ نصحي كان لخالك، وكان الأجل رائده. والله لا أنِي عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أُدْرك به ثأرًا أو تُخْتَرم نفسي فأُعْذَر. ثم إنه عمد إلى أنفه فجدعه ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي. قيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك. فأذنت له فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصير، وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام، لقد أتيتُ فيما يُؤْتَى مِثْلُكِ في مثله. ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه. وقد جئتكِ مستجيرًا بك من عمرو بن عدي، فإنه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه بالمسير

إليك، فجدع أنفي وأخذ مالي وحال بيني وبين عيالي وتَهَدَّدني بالقتل. وإني خَشِيتُ على نفسي فهربت منه إليك. أنا مستجير بك ومستند إلى كهف عزك. فقالت: أهلاً وسهلاً، لك حق الجوار وذمة المستجير. وأمرتْ به فأُنْزل، وأجْرَتْ له الأنزال ووصلتْه وكسَتْه وأخدمتْه وزادت في إكرامه. وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصرٍ مَشِيدٍ على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها. فقال لها قصير يومًا: إن لي بالعراق مالاً كثيرًا وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك. وإن أذنتِ لي في الخروج إلى العراق وأعطيتِني شيئًا أتعلل به في التجارة وأجعله سببًا للوصول إلى مالي أتيتك بما قدرتُ عليه من ذلك. فأذنت له وأعطته مالاً، فقدم العراق وبلاد كسرى فأطرفها من طرائفه وزادها مالاً إلى مالها كثيرًا، وقدِم عليها فأعجبها ذلك وسَرَّها وتَرتَّبَ له عندها منزلة. وعاد إلى العراق ثانية فقدِم بأكثر من ذلك طُرَفًا من الجواهر والبَزّ والخَزّ والديباج، فازداد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه. ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه. ثم خرج ثالثة فقدِم بأكثر من الأُولَيَيْن ظرائف ولطائف فبلغ مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهمّاتها وملمّاتها، واسترسلت إليه وعوَّلت في أمورها عليه. وكان قصير رجلاً حسن العقل والوجه حصينًا لبيبًا أديبًا، فقالت له يومًا: أريد أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخرجْ إلى العراق فأْتِني بكذا وكذا من السلاح والكُرَاع والعبيد والثياب. فقال قصير: ولي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكُرَاع والعبيد والثياب، وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك. وكنت أتربص به المنون وأنا أخرج متنكرًا من حيث لا يعلم فآتيك بها مع الذي سألت. فأعطته من المال ما أراد وقالت: يا قصير، المُلْك يحسن لمثلك، وعلى يد مثلك يصلح أمره. ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إيرادُه وإصدارُه إليكم، وما تَقْصُر يدك عن شيءٍ تناله، ولا يقعد بك حال ينهض بي. وسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسدٌ خادرٌ، وليث ثائر قد تحفز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكّنه من قلبها قال: الآن طاب المِصَاع. وخرج من عندها فأتى عَمْرَ بن عدي فقال: قد أصبتَ الفرصة من الزباء، فانهض فعجِّل الوثبة. فقال له عمرو: قل أسْمَع، ومُرْ أفعل، فأنت طبيب هذه القرحة. فقال: الرجال والأموال. قال: حكمك فيما عندنا مسلَّط. فعمد إلى أَلْفَيْ رجل من فتيان قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود وألبسهم السلاح والسيوف والحَجَف وأنزلهم في الغرائر وجعل رؤوس المسوح من أسفالها مربوطة من داخل، وكان عمرو فيهم. وساق الخيل والعبيد والكُرَاع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير. ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلحين بالسيوف والحَجَف وقال: إذا توسطت الإبل مدينة الزباء فالأمارة بيننا كذا وكذا، فاخترطوا الرُّبُط. فلما قربت العِير من مدينة الزباء رأت الإبل من قصرها تتهادى بأحمالها فارتابت بها. وقد كان وُشِيَ بقصير إليها وحُذِّرتْ منه، فقالت للواشي به: إن قصيرًا اليوم منا، وهو ربيب هذه النعمة، وصنيعة هذه الدولة. وإنما يبعثكم على ذلك الحسدُ. ليس فيكم مثله. فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها، فقالت:

ما للجمال مَشْيِها وئيدًا؟ أجندلا يحملن أم حديدا
أم الرجال في الْمُسُوح أم صرفانًا باردًا شديدًا سُودا؟

ثم أقبلت على جواريها فقالت: أرى الموت الأحمر في الغرائر السود. فذهبت مثلاً. حتى إذا توسطت الإبلُ المدينة وتكاملت ألقَوْا إليهم الأمارة فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراعٍ بأَلْفَيْ باترٍ طالب ثأر القتيل غدرًا. وخرجت الزباء تَمْصَع تريد النفق، فسبقها إليه قصير فحال بينهما وبينه. فلما رأت أنْ قد أُحِيط بها ومُلِكَتْ التقمت خاتَمًا في يدها تحت فَصّه سُمّ ساعة، وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو. فأدركها عمرو وقصير فضرباها بالسيف حتى هلكت، وملكا مملكتها واحتويا على نعمتها. وخَطَّ قصير على جذيمة قبرًا وكتب على قبره هذه الأبيات يقول:

مَلِـكٌ تمتَّــعَ بالعـساكر والقنا	والمـــشُـرفيّةِ، عِـــزُّه مـــا يُـوصفُ
فـسـعت منيّتــه إلــى أعـدائه	وهــو المتــوّج، والحــسام المرهفُ